

اعادة البناء^١



سنة اخرى تدور دورتها فتسير قوافل المنتهين والمنتهيات امام رؤساء معاهدهم ويتسلمون من ايديهم الشهادات والجوائز ، ويقبل الوالدون والوالدات والاقارب والاصدقاء مهنتين . وما ان تتلاشى هذه الاصوات حتى يقف المهنتون على عتبة معتوك الحياة وجهاً لوجه مع المستقبل . والمستقبل في احسن حالاته مجهول ، يقبل عليه الانسان وملء برديه الامل احياناً والوجل احياناً اخر . والحالة النفسية التي يجابه بها الانسان مستقبله وليدة حاضره .

واقول ما يقال في الحاضر العربي انه مخيف ، وكذلك الحاضر العالمي . فعالمنا مملوء بالمخاوف ، محفوف بالاعطال ، مهدد بالويلات يخيم عليه القلق والخوف . والخوف كما تعلمون يولد في الفرد والمجتمع عداء للتطور ويدفعهما الى التمسك باهداب الحاضر او التهرب الى ذكريات الماضي . وما اكثر ما يترحم الناس على

(١) القيت هذه الكلمة في حفلة اليوبيل الخمسيني وتوزيع الشهادات في مدرسة

«الفرنديز» في رام الله ، الاردن ، في ٢ تموز ١٩٥١

الماضي لا لسبب سوى النعمة على الحاضر والخوف من المستقبل «
فيرددون مع الشاعر :

لله ايامنا ما كان احسنها
والشام ما كان احلاها بوادها
كنا معا في نعيم لا يمل فهل
تعود ازمنا عيناى تبكيها ؟

ان هاتيك الايام لا تعود ، ولن تعود ، ويجب الا تعود . إذ
على الرغم من جميع المحن والمصائب التي ألمت بالعرب ، على الرغم
من ذلك كله اقول اننا نعيش في زمن يفوق كل ما سبقه من ازمنا
خطورة يجعل الحياة في حد ذاتها شرفاً وامتيازاً ، وتتطلب
سهرام مستمرام ، وجهادام ، وتلقي على عاتق كل فرد تبعه
ايما تبعه .

انتم اذن ايها المنتهون الذين تقفون على عتبة حياتكم العلمية
في اخرج فترة من التاريخ العربي تغبطون على هذا الامتياز .
اقول هذا مع علمي ان عالمكم الذي نشأتم فيه فتيان وفتيات قد
درست معالمة ونلاشت قيمه وتحطمت مقاييسه وانقلبت اوضاعه
راسام على عقب . وقد وكل اليكم ان توجدوا له بديلام وان تقيموا
صرح مستقبل افضل وابقى . فأسس البنيان القديم انهارت وعفى
عليه العرم لانها كانت مبنية على رمل . وقد اعطي لكم ان تقيموا
مكانها اسام جديدة مبنية على صخر . وحذار ان ايام الرخاء

واليسر ولت وحل محلها الجهد والعسر .

فمهتمكم التي انتدبتم للقيام بها هي ان تعيدوا بناء صرح هدمه الزلزال . عليكم ان تنقذوا الوطن المفقود من ايدي المفتصبين واهم من هذا واشد إلحاحاً أن تنقذوا الشعب . فما هي الخطوات التي ينتظر منكم ان تقوموا بها لاتمام هذا الواجب المقدس في اروع فترة من التاريخ .

اولى هذه الخطوات او الواجبات ان تقاوموا كل ما يطيح لكم ان تنظروا الى الوراء . فقد علمتني الحياة درساً تلقنته في ايام حداثتي ولم أفهمه إلا بعد ان خبرت الحياة واتعابها . فلما كنت صغيراً درست نظير اخوتي واخواتي الكتاب المقدس بقصصه وادبه وسير رجاله . وكثيراً ما ترددت على مسامعي قصة امرأة لوط وما آل اليه امرها لما خرجت وذويها من سدوم وعمورة . وكان الملاك قد امرهم ألا ينظروا الى الوراء بل يتابعوا المسير الى الامام . غير ان امرأة لوط لم تستطع إلا ان تنظر الى الوراء فتحوالت فوراً الى عمود ملح . لم اصدق القصة آنذاك ويصعب ان اصدقها الآن ، غير اني افهم اليوم مغزاها . فالحياة لا ترحم احداً يتعلق باهداب الماضي ويصبو اليه ، كذلك لا ترحم الحياة شعباً يفضل العيش في الماضي على السير في جادة العمل والامل . ومن يحاول ان يعيش في الماضي يمت مها يكن ذلك الماضي عظيماً ومجيداً .

ثاني ما ينتظر منكم ألا تستسلموا إلى اليأس . أنا اعلم بالفشل

تلاو الفشل الذي مني به العرب في جهادهم القومي ولا يزالون . أنا
اعلم ان عدداً كبيراً من اللاجئين لا يزالون حتى هذه الساعة
يفترشون الغبار صيفاً والأوحال شتاء ويلتحفون السماء ويبيتون
على الطوى ، يكاد جبل امهم ان ينقطع ونور رجائهم أن يخبو
وارادتهم للحياة ان تنعدم .

انا اعلم بعدم الاكتراث واللامبالاة بمصيرهم . غير اني اعلم
ايضاً ان لا داعي للعربي ان يستسلم لليأس ما دام في النفس رفق
حياة . وما اليأس إلا فالج روحي يشل اعصاب كل من ابتلى به
من الأفراد والشعوب . وحاجتنا اليوم إلى رجال اشداء ، لا إلى
اشلاء إذا اردنا ان نتم المهمة الملقاة على عاتقنا حتى تباركنا الأجيال
المقبلة .

وثالث ما ينتظر منكم الا تستسلموا إلى الشك . فالعربي اليوم
بسبب من تكسر نصال المصائب على النصال في حياته ، وبسبب
من تهافت قيمها ومثلها ، وبسبب من تحطم آماله ، اصبح يشكك
في كل شيء حتى نفسه . ولن اعجب اذا انبرى واحد منكم مشككاً
في صدق ما اقلوه الآن ومرتاباً في قيمته . والشك يولد الخوف ،
والخوف يولد النقمة ، والعربي نائم على المجتمع وعلى اوضاعه ومثله ،
نائماً على البشرية وعلى آمالها ، نائم على الحياة وعلى احلامها . وهو
اشبه بشمشون بعد ان غدرت به دليلة وجز شعره وسملت عيناه ،
قد يفتنم اقرب فرصة للانتقام من اعدائه حتى إذا ادى ذلك إلى
الاتحار . فهو يتلمس اعمدة الهيكل وما ان يستند اليها حتى يدفعها

بقوة النعمة واليأس قائلًا : « علي وعلى اعدائي يا رب » .

إن واجبكُم ايها المنتهون ان تبرهنوا للملأ ان الروح العربية على الرغم من كل ما انتاب العرب من فشل وخيبة ، وعلى الرغم من كل ما ألم بهم من مصائب وويلات ، لا تزال ثائرة جبارة ، تأبى ان تسحقها التجارب ، بل ستخرج لا محالة من نيراث الأزمات نقية مصفاة من الدغل والفساد ، تصبو إلى الجهاد الدائم والعمل المنظم المستمر .

ستخرجون من هذا المجتمع المدرسي المثالي الى مجتمع حطمت آماله الحيبة ، وشل قوته الخوف ، وحجر امانيه اليأس ، وشوهت روحه النعمة . وقد وقعت عليكم تبعة بعثه مجتمعا ملء برديه الأمل ، مفعم القلب بالثقة ، قوي الروح بالحب . نعم — الامل والثقة والمحبة — كلمات لا تزال معانيها حية . وواجبكُم الذي ينتظركم خارج المدرسة ، لا بل الشرف الذي تغبطون عليه هو ان تعيدوا الى هذه المعاني قواها الفعالة ، وتردوا اليها سلطانها حتى تعود بالعرب الى جادة المجد والفلاح .

ورب قائل « انسى يكن لنا هذا ، والحال كما ذكرت » . فاسمحوا لي ان اجيب على مثل هذا السؤال بتعداد خطوات عملية بسيطة تضمن لنا النجاح اذا وضعت موضع العمل . اولها ان يهتم العربي بشؤونه ويفيها حقها قبل ان يهتم بشؤون غيره . ولو اولينا فلسطين من الاهتمام ما قد اوليناه كوريا والصين مثلا لما آلت الحال الى ما آلت اليه . وكثيراً ما يكون اهتمامنا بالامور البعيدة

وسيلة للتهرب من الواجبات الملحة . وذووا القربى اولى بالمعروف .

وثانية هذه الخطوات العملية ان يتم الفرد منكم عمل كل يوم بيومه بامانة واخلاص واتقان مهما يكن ذلك العمل صغيراً . ولست بحاجة الى الزيادة في هذه النقطة البديهية لولا ان البعض لا يقبلون على الأمر إلا اذا كان كبيراً ويحتقرون الامور الصغيرة لانها صغيرة - ناسين ان حصاة صغيرة كثيراً ما تسند البنيان وتحول دون انهياره .

وثالثة هذه الخطوات ان يدرك العرب ضرورة العمل المنظم التعاوني المستمر ، لأن الارتجال والفردية والطفرة زالت ولان تعود .

غير ان هذه الخطوات لا تقتصر على الأمور العملية بل تتناول كذلك وجهة نظر الفرد إلى نفسه وإلى عمله وإلى مواطنيه وإلى حكامه والأخيرة هي اهم ما يجب ان يناله التطور . فقد تعود العربي ان يخاف الحكومة ويخشها ويحسبها السيد المطاع مع انها في العرف الديمقراطي بمثابة الموظف أو الخادم المطيع . والحاجة إلى مراقبة الحكومة ومحاسبتها بينة واضحة ، وبها ، في النهاية يتم الاصلاح . والشعب الديمقراطي في الحكم الديمقراطي لا يخشى الحكومة بل يحترمها ، ولا يخافها بل يراقبها ، ويتعاون معها في سبيل المصلحة العامة .

وقد ينبرى في عصر الشك هذا واحد ويقول : « ما هذه
الترهات التي لا تجدي نفعاً ازاء جسامة الموقف وخطورته . اتبعث
هذه البسائط للعرب قوتهم ومجدهم وتعيد لهم ما فقدوه من
فلسطين ؟ »

جوابي على هذا السؤال واضح وصريح . ان هذه البسائط لا
تبعث قوة ولا تعيد وطناً مفقوداً . غير انها تفتدي شعباً وتعيد
اليه الثقة والقوة والارادة للحياة . وما لم نفتد الشعب ونعد اليه
الارادة للحياة لن نستعيد الشعب ولن نستعيد الوطن . وعليكم
انتم يا ايها المنتهون ان تسيروا في طليعة القوى القومية التي تعمل
في سبيل الشعب وانقاذه من الجوع والعري والعوز والجهل والشك
والياس والقنوط اولاً وقبل كل شيء .

ومنكم يا ايها المنتهون تنتظر شيئاً آخر . عندما تخرجون الى
معتك الحياة وتقتحمون لجتها عليكم ان تحتفظوا بمثاليتم التي
تدربتم عليها في جو المدرسة المثالي ، وأن لا تنقطعوا عن أن تحلموا
احلاماً وان تروا رؤى . فلا يتميز الانسان عن الحيوان إلا
باحلامه وبجهداته المتواصلة في سبيل تحقيقها . واعظم ما يحتاج
العرب اليوم في وسط هذه الفترة العصبية المستحكمة بهم وفي غمرة
الشك والياس والخوف هو ان يستعيدوا القوة على أن يحلموا
احلاماً ويروا رؤى ويواصلوا العمل على تحقيقها .

واني أرى بعين الرجاء شعباً صهرته الحن وطهرته الآلام ،
يحدوه الايمان ويشده ساعده العلم ، ينتصب ليجيب على تحديات

الاعداء ويبرهن للعالم ان حيرتنا قد استحالت إلى يقين وقلقنا إلى
طمأنينة وخوفنا إلى اقدام وشكنا إلى ثقة ويأسنا إلى أمل وضعفنا
إلى قوة ، ويبين للناس جميعاً ان الروح العربية ، كالعنقاء الطائر
العربي ، لن تموت البتة ، بل تنبعث من وسط الرماد وتعود إلى
الحياة وهي تفيض قوة ونشاطاً وأملاً .